

من وراء أستار الظلام

كنت على موعد مع محدثي حيث سعيت إليه؛ لأحصل منه على حديث... وجلست أنتظره في مكان عام حتى شاهدته قادما من بُعد قريب بصحبة رفيق يرشده الطريق، فيما هو قد أمك بيمناه عصا يتحس بها طريقه... وعندما اقترب من مجلنا بادرت به بالتحية، وأخذت بيده إلى المقعد فتلمسه، ثم جلس واستراح عليه. وقد شكرته على قدومه إلى هذا اللقاء وما تجشم من مشقة في سبيله - وكان محدثي قد وصل في دراسته إلى مرحلة الدراسات العليا بإحدى الجامعات.

وابتعدت عن الحديث عن وصف المكان الذي نجلس فيه وما يحف به من أشجار ومناظر خلابة مراعاة لضيئي الكفيف. غير أنني دون قصد مني أمكت بعصاه التي وضعها بجانبه، وأخذت أمتدح شكلها ولونها وطريقة صنعها، ويبدو أن ذلك قد لاقى استحسانا من نفسه، فابتسم ابتسامة عريضة.

فأدرکت علی التو أن ابتسامته تحمل أكثر من معنى . . . وما لبث
أن قال:

عكازتی هی ناظری هل فی جماد من بصر؟

فعقبت علی ذلك بقولی - قد یكون الإنسان كفیفا، ولكن البصيرة
أقوی من البصر. . ثم ساد الصمت بیننا برهة احتینا خلالها ما قدم
إلینا من مشروبات.

ولما كان الهدف من اللقاء هو التحدث عن دنیا المكفوفین، فقد
كنت حریصا أن أترفق بمحدثی، وأن أفسح له فرصة الإفازة فی
الحديث. . . وانتظرت قليلا وأنا لا أفاتحه فی موضوع الحديث حتی
بادرنی بلهجة جادة:

كنت قد طلبت منی أن نتحدث فی موضوع رؤی المكفوفین
وأحلامهم. . . . فما هی النقاط التي ترغب فی أن نبدأ الحديث
منها؟

قلت: أرجو أن توضح لی بعض الأمور التي سوف تساعدنی فی
هذا البحث.

قال: بكل سرور

قلت: أعتقد أن هناك فارقا كبيرا - فی القدرة علی التصور - بین
شخصین: أحدهما ولد كفیفا، والآخر كُفَّ بصره بعد سنوات من
مولده.

قال: نعم، فقد فقدت بصرى وأنا فى سن الحادية عشرة
تقريباً... ولكننى ظللت بعدها ولعدة سنوات قادراً على استرجاع
هيئة الأشخاص الذين كنت أعاشرهم، وكذلك استرجاع الأوضاع
والمناظر التى كانت تحيط بى، كما أننى كنت قادراً على استرجاع
بعض الانطباعات الشكلية واللونية للأشياء، وخاصة إذا ما اقتربت
منها ولاستها أو شممت رائحتها أو تذوقت طعمها أو سمعت لها
صوتاً... غير أنه بمرور الزمن أخذت هذه القدرة فى الاضمحلال،
وبالتالى زالت تلك الصور وما علق منها فى مخيلى... وأصبح
استرجاع أية مواصفات لتلك الأشياء أو جزء منها غاية فى الصعوبة،
وصار ذلك لا يتم إلا عن طريق العودة إلى تحمها عن طريق
الحواس الأخرى..

وقد أستطيع أن أحس إحساساً عاماً بهيئة الأشجار، غير أنه لا
يمكننى أن أعيد إلى ذاكرتى هيئة جذعها إلا إذا لمست يداى، كما أننى
لا أستطيع أن أحس بشكل أوراقها أو ثمارها إلا إذا تحممتها واقتربت
منها وشممت رائحة أزهارها إذا كان لها زهر...

قلت: وماذا عن تركيب الصور...؟ وهل يمكنك إدراك الصور
الخيالية؟!

قال نعم إلى حد ما، وغالباً ما يختلف ذلك من كفيف إلى
آخر...

فمثلا إذا سمعت الرعد شملنى إحساس عام أمكتنى على أثره أن أتوهم ظلمة السماء وتزاحم السحب... وإذا سمعت صوت قطرات المطر ازدادات الأخيلة وضوحا فى نفسى، حتى إذا سقطت على بعض حبات المطر اقتربت معالم الصورة فى نفسى، وأصبح لها انفعال خاص... ينبعث فى نفسى.

وكذلك إذا ما سارت بالقرب منى سيارة وسمعت صوت آلاتها استطعت أن أتوهم لها شبعا، وإذا ما أطلقت نفيها للتحذير زادت شخصيتها فى ذهنى ونفسى... أما إذا تحمست جسم السيارة وركبتها وسارت بى فإن الانسان فى هذه الحالة يحس بيديه شيئا كثيرا من الحقيقة....

قلت: ذلك يعنى أنه كلما تعددت أسباب الحس والإثارة كان ذلك دافعا لتجيد هيئة الشئ رويداً رويداً.

قال: تماما

قلت معقبا... فى هذا الصدد يمكننا أن نقول إن الأخيلة فى ذهن المكفوف تكون على هيئة أشباح غير محدودة الشكل طالما أنه لم يستخدم حاسة اللمس والحواس الأخرى، وقد لا تختلف هذه الأشباح فى أذهان المكفوفين من ناحية النوع، ولكنها تختلف من ناحية الدرجة، وخاصة درجة الأثر النفسى.

كما أننا نتطيع أن نقول إن انعدام الانطباعات وافتقار عقل الكفيف إليها يؤدى به إلى انعدام القدرة على التخيل وتشكيل الصور الخيالية.

وفى الحقيقة أنه يمكننا بتجربة بسيطة أن نتحقق من أنه إذا ما أطل الإنسان النظر إلى شيء ما ثم حجب بصره عنه بعض الوقت فإنه سوف يحس بزوال مدركاته وانطباعاته عن هذا الشيء تدريجياً . .

واستطردت أسأل محدثى:

وما مدى قدرتك على استرجاع الألوان؟

قال - قد يكون لدى الكفيف الذى كف بصره فى طور الشباب قدرة على استرجاع أطياف الألوان - والتفريق ذهنياً بينها - وخاصة الألوان الرئيسية مثل الأحمر والأصفر والأزرق - أى أن الأزرق غير الأحمر والأحمر غير الأصفر وغير الأخضر، غير أن هذه القدرة تزول تدريجياً، ويصبح الأمر بالنسبة للتفريق بين هذه الألوان حالة سماع ذكرها عملية عقلية بحثة لا صورة لها. . . .

وأردف محدثى يقول: وتتوقف درجة القدرة على الاسترجاع على وضوح المخترنات السابقة والمحتويات الذهنية ومدى ما أمكنه من الحفاظ على الانطباعات عند فقد بصره. . . . غير أن هذه المحتويات تزول تدريجياً بمرور الزمن

ولكن من المكفوفين من يقول إنه يمكنه استرجاع صور أهله وأقربائه وإن كانت هذه الصور غير واضحة تماماً. . . . كما إن منهم من يقول إنه يمكنه استرجاع الجو المحيط واستلهام الصور. . . .

أما من ناحية قدرة الكفيف على التخيل وتركيب الصور والأخيلة فإنه يقال دائماً إن فقدان البصر كثيراً ما يؤدي إلى إرهاف الحواس الأخرى، وبالتالي فإن القدرة على التخيل وتركيب الصور - بمساعدة الحواس الأخرى - قد تكون فائقة من ناحية الدرجة والكيفية إذا ما قورنت بنفس القدرة لدى الشخص المبصر السوى.

ويقول بعض المكفوفين إن حواس اللمس والشم والسمع، وربما حاسة الذوق أيضاً كثيراً ما تساعدهم على تركيب الصور في أذهانهم. فمن السهل على الكفيف إذا لمس صنوبر المياه أن يعرف كيف يديره فينساب منه الماء، وعندئذٍ تكتمل الصورة في ذهنه.

وقد يؤدي عدم إمكان لمس شيء معين إلى عدم القدرة على تحديد بعض مواصفاته، وبالتالي إلى انبثاق أخيلة مختلفة تختلف من شخص إلى آخر، وعلى سبيل المثال: من إخواننا المكفوفين من لم ير الأسد قبل أن يكف بصره، كما أنه لا يستطيع الاقتراب منه أو لمسه. ولكن في حالة سماع زئير الأسد فإن ذلك بلا شك سوف يساعده على تركيب صورة ذهنية على نحو ما لهذا الحيوان حسب وقع الصوت في نفسه.

واستطرد محدثي يقول:

أما الإنسان الذي جاء إلى الحياة كفيفاً فلم ير النور، فإنه يصير عاجزاً عن تركيب أى نوع من الأخيلة إلا عن طريق اللمس

واستخدام الحواس الأخرى، فيمكنه إذا لمس نوعين من الفاكهة كالبرتقال والعنب مثلا: - أن يفرق بينهما في الشكل والحجم والتركيب والخشونة أو النعومة، وغالبا ما تزداد خبرته إذا ما تذوق طعمهما أو اشتم رائحتهما.

قلت: وما هي الحاسة التي تجيء في الترتيب الأول بالنسبة للكفيف؟

قال: إن حاسة اللمس تعتبر الحاسة الأولى التي يعتمد عليها، فهي التي تساعد على التعرف على العالم الخارجى... ولا شك أنه بمرور الوقت يكتب مهارة كبيرة في هذا الاتجاه، وكثيرا ما يؤدي به ذلك إلى حفظ الكثير من الأوضاع والانطباعات.

ويأتى بعد ذلك فى الأهمية حاسة السمع، فيها يستطيع الكفيف أن يحدد المسافات التي تفصل بينه وبين مصدر الصوت... ثم يحاول أن يتجنب مصادر هذه الأصوات إذا ما كانت هناك خطورة منها.

ثم يأتى بعد ذلك فى الأهمية حاستا الشم والتذوق؛ فهما الوسيلتان اللتان تضيفان معلومات جديدة إلى دنيا الضيرير.

وتمهلت قليلا، ثم سألت محدثى: وهل يحلم الكفيف؟ وماذا يتراءى له فى منامه؟

وسكت محدثى برهة: ثم قال من الطبيعى أن يحلم الكفيف؛ فهو كبقية البشر تنقسم حياته إلى الشعور واللاشعور، والأحلام -

كما نعرف - تصاحب النوم للإيقاظ عليه، غير أن الكفيف لا يرى صوراً واضحة المعالم فى منامه، ولكنها أخيلة لرموز معينة تترامى له، وقد يتألف منها حلم معين... كما أن الكفيف قد تطوف به أطياف تبعث فى نفسه الفرح والبهجة، كما أنه يتعرض لما يتعرض له الأسوياء من مخاوف واضطرابات أثناء النوم.

قلت: هناك سؤال أخير أرجو أن تختتم به الحديث.

ما مدى إحساسك بالارتفاع؟... أقصد الأماكن المرتفعة

قال: إن الإحساس بالخوف هو الإحساس الوحيد الذى يراودنى إذا ما كنت فى مكان يقال عنه إنه مرتفع، ويزداد هذا الإحساس زيادة كبيرة إذا لم يكن هناك من يصاحبنى ويرشدنى إلى الطريق.

ومن ذلك يتضح أن الكفيف غالباً ما يكون شديد الحساسية بالنسبة لتلك المرتفعات والمنخفضات التى تصادفه فى الطريق، ويرجع ذلك إلى فقدان الأمن الذى يلازمه أثناء سيره خشية الاصطدام أو السقوط، وهذا ما يدفع الكفيف إلى الحذر الشديد أثناء السير..... وعندما انتهى الحديث

قلت لمحدثى وأنا أساعده على النهوض: أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك

فقال مبتسماً على العكس، لقد أتحت لى فرصة الحديث عن نفسى، فرافقتة مودعاً شاكراً.

مدى قدرة الإنسان على التعلم واكتساب الخبرات برغم فقدان بعض الحواس

يسوقنا الحديث ونحن نتمتع إلى ما يقع وراء أستار الظلام إلى البحث عن مدى قدرة الإنسان على التعلم واكتساب الخبرات في حالة فقدان بعض الحواس - مثل حاسة البصر أو حاستى السمع والبصر معاً. . . .

وهنا تجدر الإشارة إلى ما يحدث في معاهد تعليم الصم والبكم وما يقدم إليهم من وسائل للتعليم، وفي مقدمتها طريقة بريل Braille لتعليم العميان، وما يكتسبونه من خبرات بمزاولة مختلف أنواع الأعمال اليدوية، حتى إن منهم من يبرع في هذا المجال حتى تكاد براعته تعادل براعة الآخرين من الأصحاء.

غير أن العلم قد يبحث دائماً عن النماذج؛ ليتخذ منها مقاييس يرنو إليها الباحثون.

ولما كانت (هيلين كيلر) تعتبر نموذجاً رائعاً للطموح البشرى في ميدان التربية والتعلم، فإننى أسوقها هنا كمثال يستشهد به فى هذا الصدد.

* مدى قدرة الإنسان على التعلم برغم فقدان بعض الحواس

فى بداية عام ١٨٨٠ ، وهناك فى ولاية ألاباما الأمريكية - فى منزل كأنه الفردوس الصغير تحيط به البساتين المثمرة، وتمرح حوله الماشية من كل نوع - وتغطى جدرانها أغصان الكروم النامية، وفروع شجيرات الورد المتسلقة بأزهارها النضرة.

وكان الناظر إلى هذا البيت كأنما يبصر كومة من الأوراق الخضراء تتركبها ألوان من الأزهار اليانعة البديعة، تطوف فوقها أصناف الطيور المغردة وتطن حوالها أسراب النحل النشيطة، وترفرف قريبا منها جماعات الفراش ذات الألوان الزاهية المختلفة، وبين الحين والحين يهب نسيم لطيف محمل بعطر الأزهار المتفتحة التى تغطى المزارع والأشجار الخضراء، وكانت الحقول والمراعى تزخر بالماشية وأطفالها الفتية التى ولدت فى الربيع. وكان نبات القمح المترعرع قد أوشك أن يتم نضجه، وكانت الأشجار العالية المورقة عامرة بأسراب من الطيور تغنى صباح مساء، وكانت أسراب النحل تهيم على وجهها تمتص رحيق الأزهار وتعود مسرعة به إلى خلاياها لتعمل الشهد الشهى... لذيذ الطعم.

وسط هذه البيئة العامرة بما يبهج النفس ولدت هيلين كيلر - من أبوين سويين - ولقد كانت طفلة سوية جميلة توسم فيها أبواها النجابة والذكاء وأحاطاها بحبهما وعنايتهما - ولقد بدت دلائل الذكاء

فعلا مبكرة على الطفلة، فكانت دائمة الحركة شديدة اليقظة، سريعة التقليد لما يدور حولها من قول أو فعل .

وفى أحد الأيام وبعد أن فرغت الأم من استحمام طفلتها هيلين - وكان ذلك فى الهواء الطلق وتمت إحدى الأشجار المورقة - وبينما الطفلة فى حجر أمها إذ لفتت نظرها واستهوتها تلك الظلال المتحركة الراقصة، ظلال أوراق الشجرة على سطح الحشائش الخضراء، فانزلقت الطفلة من حجر أمها، ووقفت واندفعت تمشى وراء هذه الظلال وهى لم تتجاوز من العمر أكثر من سنة، كأنما تريد أن تقبض على هذه الظلال بيديها. . . ولكنها ما لبثت أن سقطت على الحشائش صارخة مستغيثة بأمرها التى أدركتها فى دهشة وفرح .

- تسعة عشر شهرا مرت على تلك الطفلة السوية الجسم والعقل، كانت خلالها تنمو كما ينمو الأطفال الأصحاء فى طهارة وبراءة ومرح، وقد احتضنتها الطبيعة الجميلة، وابتسم لها كل شىء، وأخذت منذ استطاعت أن تمشى على قدميها تعبت بكل ما حولها وتحاول أن تكتشف كل ما يقع تحت بصرها تحلله وتركبه وتهدمه ثم تبنيه، تجرى وتقع وتصرخ وتضحك، تطارد الطيور والدواب، وتسابق الفراشات كأنما تريد أن تقبض عليها، تلاعب كلبها الذكى الحنون وهو يلاعبها، وتجذب ذيل القطة الوفية وهى تداعبها وتخدشها، كانت تلهو وتلغو وتحاكي كالقردة - أمها وأباها وخوادمها

والطيور والحيوانات حولها - كانت مليئة بالطفولة المرحّة، فملأت منزل أبويها بمرح الطفولة وسعادتها.

هكذا كانت الطفلة هيلين كيلر حتى شهر فبراير سنة ١٨٨٢م.

* هيلين تقع فريسة للمرض

كان الربيع في طليعة أيامه، وقد أخذت موسيقا الطيور تغمر الفضاء بألحانها، وبراعم الأشجار والنباتات تطل على العالم من أكمامها، وكانت أشعة الشمس الذهبية الواهنة تملأ الجو دفئاً رقيقاً، وفي وسط هذا العالم المرح الوداع كانت الطفلة المكيئة هيلين تعاني حمى خطيرة حلت بالدماغ والأمعاء، وتقاسى الآلام وأوجاعاً. لقد أضتها الحمى وأشعل لهيبها في عينيها ناراً محرقة، وجفف أوصالها وأطرافها

وكانت الطفلة في صراخها وتضرعها تجرد من أمها الحنون ذلك الملاك الرحيم الذي يشاركها في الآلام، ويمسح بيده الرقيقة ما يستطيع من أوجاع.

وكانت معجزة يوم أن غادرت الحمى القرمزية تلك الطفلة المضناة بتلك السرعة العجيبة التي حلت بها. غادرتها الحمى، ولكنها خلفت وراءها أثراً - أثراً في جمها وفي مزاجها وفي عقلها... لقد أغلقت تلك النوافذ التي كانت تطل منها على العالم المرح الجميل، وتركتها سجيناً في ظلمة حالكة وصمت عميق حزين، ولكن تلك

الطفله المكيه أخذت تألف هذه الحياه الجديده - حياه الصمت والظلام بعد أن قضت فتره قصيره بدنيا النور والضياء مع خضرة الأشجار ونضرة الأزهار، وموسيقا الأطيّار وطنين النحل والحشرات وحفيف الأغصان والأوراق...

امحى كل هذا من العالم حولها.. وإن كانت قد بقيت منه ذكريات باهته متداعية. استمع إليها وهى تسجل لنا تلك الذكريات... ذكريات تجاربها وحياتها خلال السنوات الأولى من طفولتها تلك التى تلت فقدانها السمع والبصر: إنها تقول:

«ليس فى استطاعتى أن أستعيد ذكري كل ما حدث فى الشهور التى تلت مرضى، ولكنى أذكر أننى كنت أجلس فى حجر أمى أو أتمك بذيل ثيابها وهى تتحرك هنا وهناك فى المنزل لقضاء الحاجات، وقد قامت يداى مقام الحواس، الأخرى فهى التى كانت تلمس كل شىء مادي حولى، وتلاحظ كل حركة وبذلك تعلمت أموراً كثيرة، وشعرت بالحاجة إلى التفاهم مع غيرى، فلجأت إلى استخدام الإشارات البدائية، فكنت أدير رأسى يمينا وشمالا حينما أعنى (لا) وأحنيه إلى الأمام وأرفعه حينما أعنى (نعم) وإذا أردت قطعة خبز قلدت قطعه بالسكين إلى قطع وفرش الزبده عليها. وإذا ما رغبت فى أن تعمل أمى (جيلاته) قلدت إدارة يد آلة (الجيلاته) وتحريكها، وكذلك كنت أنتفض بجميع جسمى كما يتفض العصفور الذى بلله القطر إذا رغبت فى حاجة معينة، وقد استطاعت أمى أن تجعلنى أفهم

كثيرا مما تريد، فكنت أصعد على السلالم لأحضر ما تريد إن كان فى الطابق الأعلى أو أذهب لإحضاره إن كان فى مكان آخر... نعم إننى مدينة لحكمة أمى وحبها بكل ما فى ليلى المظلم الطويل من نور وسعادة»

خمس سنوات مضت على تلك الطفلة - منذ أن أصابتها الحمى إلى أن جاءت المربّية - وهى فى سجن العمى والصم والبكم... نعم والبكم فلقد نَسيت بالتدرّيج نطق تلك الكلمات المعدودة التى كانت قد تعلمت نطقها قبل المرض. كانت الطفلة أثناء هذه الفترة - فترة الطفولة الأولى وتأسيس الشخصية - تكافح العراقل الطبيعية التى حرمتها النمو التلقائى السليم - تكافحها بطريقة شعورية وهى عارفة ما أصابها من حرمان وبطريقة غير شعورية حينما تثور وتهيج وتتحدى فى عناد من حولها من الكبار الذين يحبونها ويعطفون عليها. ولقد كان سلوكها فى هذه الفترة مزيجا من الشيطنة، والذكاء والأسى، أما الشيطنة فهى لطفلة فى هذه السن مليئة بالنشاط تجنح بحكم غرائزها إلى التخريب والكشف والاطلاع واللعب، ولكن قواها المقيدة لم تتطع التعبير الطبيعى عن هذه الغرائز والميول وإشباعها؛ لذلك كانت تثور وتهيج كأنما تريد أن تحطم هذه القيود، وأما الذكاء فذكاء طفلة أثبتت السنون - بالرغم من حرمانها وسائل المعرفة بفقدان السمع والبصر والكلام - أنها عبقرية فريدة فى طرازها! وأما الأسى فأسى قلب غير وديع لم يقترف من الذنوب ما يستحق من أجله كل هذا الحرمان من متع الطفولة وحرية الطفولة.

- كانت لها فى هذه الفترة صديقتان أثرتا فى حياتها حينذاك تأثيراً قويا: إحداهما تسمى «بل» وهى كلبة الأسرة التى كانت تستعمل للصيد فى عهد صباها، والأخرى تسمى (مارتا) وهى بنت الزنجية الطاهية، وكانت تكبرها بثلاث سنوات، تراملها فى اللعب والجرى والعبث. أما (بل) فكانت عجوزاً كسلى تؤثر النوم أمام موقد النار على الجرى والقفز مع هيلين، وكانت هيلين تحاول اصطحابها والتحدث إليها بالإشارة وتعاكسها أحيانا، ولكن العجوز كانت ترفض فى صبر ورزانة وعدم اكتراث، فإذا ما ألحت عليها هيلين كانت تغادر مكانها وتمطى فى بطاء وكسل، ثم تنظر إلى الطفلة المكفوفة نظرة إهمال، وتنصرف إلى الجانب الآخر من الحجرة حيث تقبع كما كانت.

أما (مارتا) فكانت الرفيق المطيع الوفى... كانت رهن إشارة سيدتها هيلين وطوع أمرها، فقد فهمت معانى إشاراتها، وكانت تقبل فى خضوع أوامر سيدتها؛ لتنجو من الصفعات التى تنهال عليها لو أبدت ممانعة. وكانت هيلين تمضى مع هذه الزنجية الصغيرة معظم وقتها: أحيانا فى المطبخ كأنها تعجن وتطبخ وتلعب بلعبها الصغيرة، وأحيانا فى حظيرة الطيور تغذى الدجاج والروميات التى كانت تلتقط الحب من يديها، فتبعث فى نفسها سعادة وفرحا، وأحيانا فى الحقول وبين الأعشاب تبحث عن بعض الطيور وأعشاشها، فإذا ما وجدت عشا أصرت على أن تحمله بنفسها إلى المنزل، وأحيانا فى إسطنبول

الخيول وزرائب الماشية تلاعبها وتلمس ضرع الأبقار عندما يحلبها الخدم - كانت تفعل كل هذا بالرغم من عماها وضممها، وذلك بمعونة رفيقتها الزنجية، ومن في الضيقة من العمال والخدم. وكانت مع هذه (الشيطة) وهذا الذكاء سريعة الغضب عنيدة تفعل ما تريد وإلا حطمت كل ما يقع تحت يديها، وكانت ترفس خادمتها إذا ما خالفت أمرها وتهيج وتصرخ كأنها تريد أن تعبر بهذه الانفعالات الصاخبة عما عجزت لغة الحديث الهادئة عن التعبير عنه.

لقد مضت عليها مدة وهي لا تدرك أنها دون غيرها من الأصحاء العاديين، لقد كانت تظن أن الناس مثلها يتخاطبون بالإشارات واللمس، ولكنها ذات يوم تبينت أن من حولها من الناس يتفاهمون بإفواههم لا بأيديهم، وهي تقول في هذا الصدد:

«لقد لاحظت أن أمي وصديقاتها لا يستعملن الإشارات مثلى عندما يردن عمل شيء، ولكنهن كن يحركن أفواههن وشفاههن، وكنت أحيانا أقف بين أشخاص يتحدثون فألمس بيدي شفاههم، ولكنى لم أستطع فهم ما يقولون. عند ذلك يثور غضبي، فأحاول أن أحرك شفتي محاكاة لهم وأصدر أصواتا مختلطة وضوضاء في حدة وانفعال، ولكن دون جدوى؛ لذلك كنت أثور أحيانا وأضرب بيدي ورجلي يمينا وشمالا وأصرخ حتى يملكني الإعياء»

هكذا ظلت المكيئة هيلين مدة خمس سنوات لم يترك والداهما أثناءها بابا إلا طرقاه؛ أملا في علاج الطفلة أو تربيتها، ولكن

جهودهما ضاعت سدى . فالمدسة العادية لا تقبل طفلة صماء عمياء ، ولو كانت عمياء فقط لا يمكن تربيتها بطريق البصر ، ولو كانت عمياء فقط لا يمكن تربيتها عن طريق السمع . أما وقد فقدت الحاستين فقد صارت تربيتها معجزة لا يقوم بها مرب عادى ، ومع كل هذا لم يفقد الوالدان كل أمل .

* ماذا كان من أمر هيلين بعد ذلك ؟

لقد نما عقلها بنمو سنها وتجاربها المحدودة - تلك التى كانت تصل عن طريق اللمس والشم والحركة ، وصارت تشعر كل يوم بأن السجن الذى تعيش فيه يضيق بها شيئاً فشيئاً ، وأن يدا خفية تشدد عليها الخناق ، وأن لغة الإشارة لم تعد تكفى للتعبير عن أفكارها ورغباتها النامية ، فكانت تحاول بطرق أخرى قاصرة وإن تكن مؤثرة ، كانت تصرخ وتصيح وتنفعل وتبكي وترتمى على الأرض مرهقة يائسة . ولم يكن يخفف عنها أسى هذه الحالة النفسية الحادة إلا ذراعا والدتها ، فكانت ترتمى بينهما كلما كانت قريبة منها . وكانت أمها تخفف عنها بلصاتها وقبلاتها ودموعها حدة هذه الثورة المشروعة . كانت الأم تفعل ذلك وقلها يحترق لما تعانیه ابنتها ، ولم يكن الأب أقل حزناً من الأم على ما أصاب الطفلة المكيئة . ولكن ماذا يفعل الحزن والأسى . . . لقد عجز الأطباء المحليون عن العلاج ، وكان الأمل الوحيد لتربية هذه البائسة فى الدكتور (ساميول هاو) مربى (لورا بردجمان) وصاحب الأساليب المشهورة فى تربية الصم والعمى ، ولكنه قد مات منذ سنوات . على أن العلم يجب ألا يعجز عن حل هذه المشكلة . . . وهل تموت الطريقة بموت صاحبها . . . ؟

بلغ الأسرة خبر طيب مشهور بعلاج أمراض العيون المستعصية في مدينة بالتيمور، فسافرت الطفلة - وكانت قد بلغت السادسة من العمر - مع والديها إلى تلك المدينة، ولكن هذا الطبيب الذى لم يجد وسيلة للعلاج لم يفقد وسيلة للنصح. فقد ذكر للوالدين أن لا أمل فى علاج البصر، وأنه يجب أن يحاولوا علاج السمع، وربما نجحوا فى العثور على آلة لتحينه أو استرداده إذا استشارا الأستاذ العالمى الشهير الدكتور (ألكندر جراهام بل) مبتكر التليفون وأستاذ علم وظائف الأعضاء الصوتية بجامعة بوسطن. وكان لهذا الأستاذ خبرة طويلة فى تعليم الصم، بل إنه أول من أسس فى الولايات المتحدة سنة ١٨٧٢ مدرسة لإعداد مدرسى الصم، وكان هو يقوم بالتدريس فيها، وله تجارب ناجحة فى معالجة الصم وتعليمهم.

استقبل الدكتور (بل) الأسرة الحزينة ببشاشة ووداعة وأمل، شأن العلماء المتواضعين. ولقد سجلت الطفلة هيلين كيلر هذه الزيارة بقولها:

(لقد حملنى الدكتور (بل) على ركبتيه فيما كنت أفحص ساعته بأصابعى، وقد جعلها تدق دقات عالية من أجلى، فأحسها بيدي، وقد أدركت أنه استطاع أن يفهم إشاراتى، ولكنى ما كنت أحلم أن هذه المقابلة ستكون الباب الذى أنفذ خلاله من الظلام إلى النور، ومن الوحشة إلى الألفة والصدقة والمعرفة والحب).

لم تحقق زيادة الدكتور (بل) أمل الوالدين فى علاج السمع، فقد عجزت وسائله العلمية عن أن ترد إلى ابنتهما تلك الحاسة وهى الحاسة الثانية المفقودة، غير أن هذه الزيارة لم تكن خاتمة المطاف ولا

نهاية الأمل ، فقد أشار الدكتور (بل) أن يكتب الوالدان قصة طفلتهم، ويبعثا بها إلى (معهد العمى) فى مدينة (بوسطن) حيث قضى الدكتور (هاو) أيام حياته يجرى تجاربه، ويطبق أساليبه فى تعليم الصم والعمى وتربيتهم فلعلهما يجدان عند المدير الجديد لهذا المعهد عوناً أو توجيهاً. فكتب الوالد بذلك فى الحال، ولم تمض أسابيع حتى جاء الرد مبشراً بأن مربية اختصاصية فى تعليم الصم والعمى قد قبلت أن تسافر إلى مقر أسرة كيلر؛ لتقوم بتربية الطفلة المكدورة هيلين . فكان هذا الخبر أول بصيص من النور والأمل يشرق على منزل الأسرة المهمومة .

وهاهى ذى تصف لنا نوع الحياة التى كانت تعيشها:

(لم أك أدرى ما كان يخبئه لى المتقبل من مفاجأة أو عجب، وكان قد افترسنى الغضب ومرارة الحياة، واعترانى الفتور بعد الكفاح العنيف. تصور نفسك على سفينة فى بحر لُججٍ وقد أحاط بها ضباب كثيف مظلم وفصلها عن العمورة، وتصور السفينة ومن عليها يتحسون الطريق إلى الشاطئ بالآت الملاحه وأنت تنتظر بقلب مرتجف دقّاق شيئاً يحدث فى أية لحظة. لقد كنت أنا تلك السفينة، ولكن بدون (بوصلة) أو (دليل).

هكذا كانت هيلين فى وحشة وعزلة وتيه تتطلع إلى اللحظة التى تجد فيها نجاة ورفيقاً دائماً وصديقاً ملازماً وحبا لا ينافسها فيه أحد، ومعينا يخرجها من الظلام الموحش إلى نور العالم الحر حولها.

لقد صرخت روحها بكلمات غير منطوقة - أيها النور امنحنى شيئاً من النور - فكان ما أرادت عندما جاءتها مربيته؛ لذلك كان أهم يوم

تذكره في حياتها هو اليوم الذي وصلت فيه هذه المربية (آن سليفان) لقد كان يوم بعثها من القبر المظلم .

نمو القدرة على التعلم والتصور عن طريق تدريب الحواس الأخرى

اقترحت آن سليفان أن تذهب مع الطفلة ليعيشا معا في مكان بعيد عن دائرة الأسرة، وقد نجحت في ذلك .

وكانت الطفلة هيلين طموحًا نشطة مغرمة بالبحث والكشف، وكانت يداها وسيلتها الوحيدة لتحقيق ذلك، فلم تكد تضع يدها على المربية حتى ذهبت لتحس وجهها وثيابها وحقية يدها، ثم أخذت الحقية وحاولت فتحها، فلما لم تستطع صارت تبحث عن مفتاحها، ولما لم تجده توجهت إلى السيدة تعمل إشارات تدل بها على طلب المفتاح لفتح الحقية، وتلح في الطلب .

وتصف لنا هيلين ما حدث بينها وبين آن سليفان في اليوم التالي لوصولها، يوم بدأت الطفلة أول درس في تعلم اللغة بواسطة التهجي في اليد فتقول :

«في صباح اليوم التالي أخذتني - آن - إلى حجرتها، وقدمت إليّ دمية (عروسة) ولما لعبت بها قليلا قربتني منها وأخذت يدي، وتهجت فيها باستعمال حروف الهجاء اليدوية (دم ي ة) حرفا حرفا »

ولطريقة التهجي فى اليد هذه نظام خاص وضع للتفاهم مع الصم والعمى، فلكل حرف هجائى رمز يدوى خاص، والمتكلم أو الوسيط يشكل إصبعه أو أصابعه وفقا لكل رمز، ويلمس بها كف المخاطب أو أصابعه وبتتبع هذه الرموز عندما تلمس الكف يفهم المخاطب الحديث، وباستعمال الأصم الأعمى هذه الرموز بلمس كف مخاطبه يستطيع أن ينقل إليه أفكاره.

ولقد اتخذت الأنسة آن سليفان يد هيلين وسيلة لنقل الكلمات إليها، وبدأت بكلمة (دمية) فكانت تتهاجها بطريقة الرموز الملموسة، وكانت هيلين موفقة فى إدراكها وفهمها هذه الرموز ومدلولها، وكانت هذه العملية فى تعليم هيلين اللغة (عملية استقبال) تشبه سماع الطفل السليم الكلمة أو الكلمات المنطوقة. أليس تعلم اللغة عبارة عن عمليتين (عملية استقبال أو استماع) عند الطفل السليم، ثم عملية (التقليد أو النطق) ؟ أما هيلين فكانت تقلد ما تتقبله من كلمات تهجتها لها مربيته فى يدها بطريق اللمس والحركة، فكانت الطفلة تقلد هذه الرموز وتستعملها بلمسها كف المربية كذلك معبرة عن الكلمات التى تريد أن تقولها أو أن تتمرن على تهجها.

واستمرت هيلين تعمل ذلك فى كل ما تعلمته من كلمات بعد ذلك، ولم تكن تدرى أنها كانت تتعلم أسماء الأشياء إلا بعد بضعة أسابيع من بدء التعلم، حينما أدركت أن اللمسات والحركات التى كانت تتلقاها على يدها والتى كانت تحاكي هجاءها بطريق اللمس

الرمزية - هي (اسم) للمسمى المحوس الخاص الذي تناولته وفحصته أثناء تلقى هذه اللغات، وبهذا الأسلوب كانت تقرن اسم الشيء بمدلولة عن طريق الربط والمجاورة، وكانت كلما تعلمت هجاء كلمة تتلقى رموزها الملموسة في يدها تقلدها كذلك في يد المريية بطريق اللمس الرمزية .

أثارت طريقة تعلم اللغة والتخاطب بواسطة حروف الهجاء اليدوية هذه - اهتمام هيلين، فصارت تلعب بأصابعها متهجية كل كلمة عرفتها، وكانت مربيتها الصبور تتلقى منها هذا الهجاء وتصلحه إن كان خطأ أو تؤكد إن كان صوابا. وكانت هيلين تذهب إلى أمها في فرح الأطفال وإعجابهم تعرض عليها وفي يدها - هجاء الكلمات التي تعلمتها.

واستمرت آن سليفان بهذه الطريقة تعلم تلميذتها، فتختار من الأسماء قليل الحروف، ومن المسميات المادى والمحوس وماله صلة وثيقة بحياة التلميذة اليومية ويثبتها المحيطة بها، واستطاعت هيلين في بضعة أيام أن تتعلم هجاء الكلمات (كوب)، (دبوس)، (قبة)، (اجلى)، (قفى)، (امشى)

ولم تكن مهمة آن سليفان تعليم اللغة فقط، ولكنها تربية وثقيف كذلك، فلجأت إلى اللعب واتخذت منه وسائل لهذا الثقيف، واستجابت الطفلة لهذه الوسائل برغبة وشغف، وإن لم تتحقق النتيجة المرجوة إلا بعد صبر ومحاولة.

أعطتها المربية يوماً بطاقة مخرمة وإبرة وخيطاً، وطلبت إليها أن تملأ الخروم بالخيط في اتجاه رأسى، وتركتها بعد أن شرحت لها ما تعمل... فلم تلبث الطفلة إلا قليلاً حتى أتمت الواجب بنجاح ودقة، وهنا كانت الفرصة المناسبة لتعليم كلمة (بطاقة) فعلمتها إياها بالطريقة السابقة، واستجابت لها الطفلة، فراحت تتهجى الكلمة الجديدة فى يد مربيتها، وفى يوم آخر جلست (آن) تكتب رسالة، فكانت (هيلين) تقاطعها وتعبث بالورق والحبر والنشاف، ولجأت (آن) إلى استخدام اللعب مرة أخرى، فناولت الطفلة خيطاً وخرزاً من الخشب ومن الزجاج، وشرحت لها كيف تنظم فى الخيط خرزتين من الخشب وخرزة من الزجاج، فعكفت الطفلة على واجبها الجديد الذى وجدت فيه ملهارة وتسليه وانصرفت إلى عمله بسرور وجد. وهكذا وجدت المربية فى اللعب والحل والتركيب الأساليب التى استطاعت بها أن تجمع بين تربية الطفلة وتعليمها اللغة.

وفى يوم من الأيام خرجت المربية مع تلميذتها إلى قرب حظائر البهائم حيث المضخة القائمة على البئر، وكان أحد العمال يدير المضخة، فيجرى الماء من فمها إلى ماعون تحتها، ووجدت المربية فرصتها المناسبة، فوضعت يد هيلين تحت الماء الجارى، وأخذت اليد الأخرى، وتهجت فيها كلمة (ماء) فى وضوح وتأکید، وفى تلك اللحظة أشرق على ذهن الطفلة فجر الكلمة التى كانت قد عرفتھا منذ سنوات وغاب عنها نطقها، وشعرت فجأة كأن ذكرى غامضة منسية قد عاودتها، وأدركت أن (الماء) هو اسم ذلك الشئ البارد المنعش الذى

كان يجرى على يدها، وكأنما أيقظت هذه الكلمة ومدلولها نفس الطفلة ومحتها الضوء والأمل والحبور، وهكذا مضى يوم شعرت فيه هيلين بأنها فى طريقها إلى حياة جديدة وعالم رحب، وآوت الطفلة إلى مضجعتها آمنة مطمئنة تشعر بأنها كانت أسعد طفلة، وتتمنى طلوع شمس اليوم الجديد.

وفى صباح يوم كانت آن فى حجرتها، فدخلت عليها هيلين تجرى فى حماسة ولهفة، واندفعت تحمل إليها خبيرا لم تفهمه المربية. ولكن هيلين استمرت تقول بطريق الهجاء اليدوى: (كلبة... طفلة) وتشير إلى أصابعها الخمس واحداً فواحداً، وتمصها بفمها. ثم أصرت على أن تصحبها آن إلى خارج المنزل، فاستسلمت المربية لهذه الرغبة، وسارت معها إلى ركن منعزل بجوار البئر. وهناك رأت الكلبة وقد وضعت خمسة جراء. وهناك أخذت هيلين تشير إلى الجراء وأمها فى حماس وفرح وتأثر، وتكرر عباراتها وحركاتها.

وفى مثل هذه المناسبات كانت آن تجد الفرص لتعليم تلميذتها كلمات جديدة، وقد علمتها فى تلك المناسبة كلمة (جرو) وكلمة (خمسة) وكلمة (صغير) وما كان الذكاء وحده كافيا لو لم تكن المربية الصالحة.

حلت اليد إذن محل الأذن فى تلقى الكلمات والجمل، وصارت الوسيلة إلى فهم اللغة المنطوقة. أما اللغة المكتوبة فحاستها عند الأصحاء هى العين، وهى ما أعوزت هيلين. وعندما شرعت مربيتها

تعلمها القراءة كان لابد لها من أن تتخذ مكان العين بديلا، فاتخذت اليد أيضا، وصارت اليد تقوم بوظيفتى السمع والبصر.

ولما شرعت آن سليفان تعليم هيلين القراءة، لجأت إلى طريقة بريل Fouis Braille (تلك الطريقة التى اشتهرت بعد وفاته سنة ١٨٥٢ وهى الطريقة العالمية المتخذة فى كتب العميان بارزة الحروف وفى تعليمهم القراءة والكتابة).

فأحضرت لها مجموعة من البطاقات الصغيرة، وكتبت على كل بطاقة بحروف بارزة كلمة تدل على شىء من الأشياء أو معنى من المعانى، وأخذت تعلم تلميذتها قراءة الكلمة بإمرار إصبعها على الحروف البارزة وبوضع كل بطاقة على مسماها. واستطاعت هيلين بالتمرين والتكرار أن تميز هذه الكلمات وأن تفهم مدلولها، كما استطاعت بالتدرج أن تعرف الرمز البارز المقابل لكل حرف من حروف الهجاء.

ثم أخذت هيلين - تحت إشراف مربيته - فى تكوين جمل من الكلمات التى فى البطاقات، فكانت تنظم الكلمات فى إطار، وترتبها بحيث تكون الجملة التى تريدها.

ووجدت هيلين فى الطبيعة ما تحتاج إليه من مواد علم الحيوان والنبات والجيولوجيا، فالحشرات والطيور والحيوانات والأشجار والأزهار والثمار والأصداف والأحجار - كل هذه الأشياء كانت مواد فحصتها أصابع التلميذة، وشمتهها أو ذاقتهها وسألت مربيته عنها. لقد كتبت هيلين كيلر فى كتاباتها بعد ذلك تقول:

«لقد فحست لوزات القطن المتفتحة، ولمست شعرها الناعم، وأحت بصفير الرياح وهى تمر خلال سيقان الذرة فى حقولها، كما أحت بحفيف أوراق الأشجار الهين الخفيف، وبنفير مهري الغضوب المحتج كلما قبضنا عليه فى المرعى وأجمناه. لا بل إننى لأذكر جيداً رائحة زفيره المحملة بروائح الأعشاب والبرسيم».

لقد تفتحت أمام الطفلة العاجزة أبواب مصطنعة لدنيا المعارف والطبيعة والحياة، وأخذت الطفلة عن طريق هذه الأبواب تدخل إلى عالم المعارف والطبيعة والحياة؛ لتعلم وتفهم وتنمى علمها بما حولها، ومعها ذكاؤها وصبرها ومثابرتها وتفاؤلها.

وقد أحت عليها نفسها بالنطق فأصرت على أن تناله، ولم يكن عجزها عن النطق لعجز فى أعضائه، ولكن لحرمانها السمع. وبالرغم من أن حياتها الدراسية كانت مرهقة ومضنية، فقد ظلت هيلين كيلر فى محاولاتها نحو التعلم - بمساعدة مربيتها الوفية - التى كانت تصاحبها فى فصول الدراسة وفى الجامعة؛ لتنقل إليها، وترجم لها المعلومات عن طريق لمس اليد - حتى أمكنها بعد كفاح طويل أن تحصل على درجة البكالوريوس فى الآداب، فى وقت لم يكن قد شاع فيه تعليم المرأة تعليماً جامعياً فى الولايات المتحدة.

وبالرغم من أنها حاولت منذ أن كانت فى العاشرة من عمرها النطق، فقد كان نجاحها فى هذه المحاولة قليلاً، فلم تكن لتخرج الحروف من مخارجها الصحيحة؛ لحرمانها السماع، غير أنها استمرت

فى هذه المحاولات سنوات أخرى تقدمت أثناءها تقدا محوسا
مكنها من الجرأة على مخاطبة الجماهير فى عدة مناسبات، وبالرغم
من عدم وصولها إلى النجاح الذى كانت ترجوه فى مخاطبة السامعين
فى هذه اللقاءات، فقد كبت شيئا من الثقة بنفسها. غير أنها حاولت
محاولات أخرى، فاتصلت بالناس فى لقاءات أخرى، وشعرت بشيء
من الرضا عن نفسها، وأحت بكثير من السعادة يشعر به المرء حين
ينال استحسان الناس وتشجيعهم.

وفى سنة ١٩٣٢ زارت سكوتلاندا بدعوة من جامعة جلاسجو
التي منحتها دكتوراه الشرف فى القانون.

* من أقوال هيلين كيلر وخبراتها:

كثيرا ما قالت السيدة هيلين: إنها تبصر بيديها، وهى تقول أيضا
إن يديها دليلها على خلق الناس وجاذبيتهم. فحينما تسلم على أحد
تشعر بمجرد أن تلمس يده يدها بما فى قلبه من حنان أو رحمة أو شدة
أو جفاف أو قسوة، فبعض الناس عندما أضع يدي فى يدهم أحس
بأنهم خلوا من المرح، وأحس كأننى أستقبل ريح الشمال الباردة،
وبعضهم تشع من أيديهم حرارة تغمر قلبى وتدفته.

ولكن كيف كانت السيدة هيلين تدرك العالم المحيط بها من
أصوات وأضواء وألوان وضوضاء وحركة وتقلب فصول؟ بل وكيف
كانت تدرك المعنويات التي لا يدركها الأصحاء عادة إلا بطريق

المحسوسات؟ فى الحقيقة أنه لا بد لعلماء النفس والباحثين من أن يتعينوا بالتأمل الباطن لدى المكفوفين؛ عسى أن يكشف لهم ذلك عن بعض ما خفى عنهم - ونجدها تجيب عن نفسها فى بساطة ويسر فتقول .

«يقولون: إن الصمم والعمى قد وضعا حائلا بينى وبين العالم الخارجى، ولكنهما فى الواقع فتحا أمام عقلى أبوابا واسعة يفتد إلى منها ما لا يحصى من الأحاسيس التى هى مصدر المعرفة لى والعظة والمتعة والتسلية. وإننى لأستطيع أن أعتمد على الحواس الثلاث الباقية عندى فى رحلاتى الكثيرة التى أقوم بها فى عالم البصرات والمسموعات»

لقد كانت تخرج إلى الحقول فى الصباح المبكر؛ لتستقبل جمال الشروق، فتحس بالهواء النقى المنعش يقبل وجهها ويداعب شعرها، وتلمس بيديها شجيرات الورد محملة بالندى الصافى وعبق الأزهار الفواح، وكانت تحس بيديها شكل قطتها اللطيفة وتقويس جوانبها، وتغوص بأصابعها فى فروتها الناعمة، وتقر يدها على ظهرها، فتجيب القطة لها استجابة أليفة حبيبة، وترتبط بينهما المودة.

وثمة أشياء كثيرة تدركها بجمع جسمها، فهى تسمع هزيم الرعد المجلجل، وتحطم الأمواج المدوية على الشاطئ، وكانت تجلس على الرمل أو فوق الصخور، وتستقبل رذاذ الأمواج المنعشة تهبط على

جسمها وتلفه لفا. وكانت تحس بقطع الأحجار يحتك بعضها ببعض،
زاحفة مع الأمواج والمياه إلى الشاطئ تارة ومتقهقرة معها تارة
أخرى. وكانت تشعر بهجوم أمواج المحيط وزئيرها، وتأنس لكل هذا
وتستمع به.

لقد كانت حاسة اللمس عندها هي ذلك المنفذ إلى العالم، بها
تكون مدركاتها وأحياتها وهي تسمع النغمة الموسيقية حين تضع يدها
على القيثارة أو (البيانو) أو المذياع أو حلق المغنى، فهي تسمع النغمة
الموسيقية ترتفع وتنخفض، وتقوى وتضعف، وتلين وتشتد، وكانت
هيلين تفرح وتسد بطريق اللمس.

أما الألوان واختلافها فتقول عنها «ربما كانت لا تشرق شمس
إشراق شمك، وربما كانت الألوان التي تغمر العالم حولكم لا
تطابق الألوان التي فى ذهنى، نعم، وربما كانت زرقة السماء وخضرة
الحقول التي تبصرونها غير ما أدركه، ولكنها مع ذلك ألوان عندى.
وأنا أفهم أن اللون القرمزى غير اللون الأحمر؛ لأننى أعرف أن
رائحة البرتقال تخالف رائحة الليمون» كانت تربط كل لون من
الألوان بشيء محسوس له صفة خاصة تلمس: فاللون الأحمر
الوردى يقترن عندها بخد الطفل الناعم الجميل أو بريح النسيم...
أما اللون الرمادى فيرتبط عندها بلمس الشال الناعم يحيط
بالكتفين... واللون البنى عندها نوعان: لون دافئ حبيب مرح

كلون ورقة الشجرة عند جفافها، ولون آخر مظلم كلون جذع الشجرة المتداعى أكلته السنون ونخره السوس وهكذا.

وقد قامت حاسة الشم فى حياتها بدور عظيم، وقويت عندها هذه الحاسة وصارت دليلها فى كثير من الحالات. وصار لكل رائحة عندها معنى مرتبط بها وذكريات خاصة لها: رائحة الأرض بعد المطر، ورائحة حظائر البهائم، ورائحة مياه البحر المالح، ورائحة بترول السيارات ورائحة صالونات السيدات، ورائحة الكتب الجديدة والكتب القديمة، ورائحة الأزهار فى الفصول المختلفة، ورائحة الناس. لقد صارت تميز كثيرا من الأشياء بروائحها، وصارت كل رائحة تحمل معها صورة وتاريخا ووجدانات وذكريات، وكانت تميز الدواب والمواشى. بروائحها وزفيرها وهى تقول فى هذا الصدد:

«إننى أعرف عن طريق شم الرائحة نوع البيت الذى أدخله»

«وذات مرة كنت فى إحدى محطات السكك الحديدية المزدهمة، فاقتربت منى سيدة وقبلتنى، ثم هرولت مسرعة فى طريقها. لم تترك أى شىء وراءها إلا رائحة عطرها، ولم ألمس حتى ثيابها. ومرت سنوات منذ تلك الحادثة ولا يزال عطرها حيا قويا فى ذاكرتى»

ولو أن هيلين كيلر لم توهب ما وهبت من خيال مبدع ما استطاعت أن تكون تلك العبقرية الشاعرة المتتجة، وأن تتخطى حواجز العجز البدنى إلى عالم المعانى والجمال والحقيقة والإنسانية. وهى تقول:

«إن الأعمى الذى لديه الخيال وروح العطف والإنسانية يشارك بالرغم منه المبصرين فى إدراكهم. فإذا ما سمع كلمات تدل على الألوان أو الأضواء أو الأشكال خمن واستعان بالحدس على فهم معانيها، مقارنة إياها بغيرها من المعانى التى يدركها بحواسه الطليمة. وأنا كذلك أفكر وأتعقل وأستنبط كأن لدى خمس حواس لا ثلاثاً»

* نبذة عن طرق تعليم الصم والبكم

انتشرت فى النصف الأخير من القرن العشرين مراكز تعليم الصم والبكم، ولم يكن انتشار تلك المراكز قاصراً على الدول الحديثة المتقدمة والمتطورة تكنولوجياً، بل إن ذلك قد امتد أيضاً إلى الدول النامية.

وقد استحدثت الأجهزة السمعية والبصرية للوقوف على مقدرة الأطفال أو المعاقين فى الاستقبال وإخراج الألفاظ التى تلقى عليهم، ومدى معرفة ردود الفعل عند كل منهم وإمكانية معالجة ذلك عن طريق الأجهزة الخاصة بتوصيل النطق الصحيح إليهم، وتؤدى الاستشعارات الخاصة بهذه الأجهزة إلى معرفة قياس درجة عجز المعوق لنطق حرف، حيث يتنى بعد ذلك - وبواسطة الجهاز نفسه - توصيل التصويب اللازم إلى مدركاته السمعية، كما استحدثت أجهزة أخرى لاستخدام عنصر اللون والشكل فى هذا المجال...

وعلى الرغم من استحداث العديد من الأجهزة فى هذا الصدد، فإن الطريقة اليدوية ما زالت تعتبر الطريقة المثلى فى تعليم المعوقين.

التكيف والتأقلم

تكاد تتفق كلمتا التأقلم والتكيف فى مدلولهما، وكثيرا ما نلجأ إلى استعمال أى من الكلمتين فيما يمكن أن تعبر عنه الأخرى.

ومعنى أن يتكيف المرء بأجواء معينة أنه قد تأقلم مع هذه الأجواء. وتتجدد عملية التأقلم أو التكيف فى حدوث تأثيرات فسيولوجية و نفسية لدى الإنسان تؤدى به إلى العودة تدريجيا إلى حالة الوضع العادى، أى حالته قبل حدوث المؤثرات الخارجية الطارئة.

وإذا تكرر التنبيه الحسى عدة مرات دون أن تتغير شدته، فقد يؤدى هذا التكرار إلى أن يفقد قدرته على التنبيه، وهذا ما يعرف بالتكيف. فحاسة الشم مثلا لا تلبث طويلا حتى يضعف انفعالها إذا تكرر تنبيهها بالرائحة نفسها مدة طويلة.

والإحساسات التى تحدث بالتماس المباشر كالأحاساسات اللمسية والإحساسات الناتجة عن تنبيه كيميائى كما فى الشم والذوق تكون

كيفية الوجدانية من ارتياح أو عدمه أو من لذة أو ألم أقوى منها من الأحاسات البصرية والسمعية .

ومن الثابت سيكولوجيا أن العادة تقلل من الحساسية بدرجة معينة في اتجاه معين، حيث يعتاد الجهاز العصبى والوصلات العصبية على أن يمر بهما نوع معين من الأحاسيس التى تفقد حدتها عند تكرار حدوثها، وقد تصل بالإنسان إلى نوع من البلادة الحسية .

وقد يحدث أن يصادف الإنسان أمراً ما يبعث فى نفسه البهجة فترة من الوقت، غير أنه لن يظل متبهجا طوال الوقت، بل لا يلبث أن يعود إلى حالته العادية .

وكذلك قد يصاب الإنسان بما يحزنه، وقد يطول به الحزن والكمد غير أنه لا بد بمرور الوقت أن يصاب بشيء من النسيان أو التبدل أو التسليم أو الشعور بقلّة الحيلة، فيعود إلى حالته السابقة تدريجيا، وهذا ما يمكن أن نسميه بالتأقلم أو التكيف أيضا .

وإذا ما غمر إنسان جسمه فى ماء درجة حرارته أقل من درجة حرارة الجسم فإنه لا يلبث طويلا حتى يزول عنه الشعور بالبرودة، وكذلك إذا غمر جسمه فى ماء درجة حرارته تزيد عن درجة حرارة الجسم فإنه لا يلبث بعد فترة وجيزة أن ينقص شعوره بحرارة هذا الماء .

وقد يقف أحد العمال الجدد أمام أحد إفران صهر الحديد، فتلفحه الحرارة الشديدة المنبعثة من هذا الفرن، غير أنه لا يلبث طويلاً حتى يتأقلم بهذا الجو، ويصبح الوهج والحرارة شيئاً عادياً بالنسبة له لا يبعثان في نفسه الضجر أو الخوف.

وقد يحدث فجأة أن ينقطع التيار الكهربائي عن أحد الأحياء بالمدينة... فإذا بصيحات الفزع والتضرر تصدر عن الناس والأطفال... ويسود المنازل والأماكن مظلمة حالكة تكاد الأعين خلالها لا تميز شيئاً حولها، ولكن ما تلبث الأعين بعد فترة وجيزة أن تميز تدريجياً ما حولها من قطع الأثاث والجدران... وبعد فترة أخرى يصبح المرء قادراً على أن يذهب أو يجيء دون أن يصطدم بشيء ما في طريقه.

ونظراً لأن القرويين قد اعتادوا الظلمة بعد غروب الشمس فإننا نلاحظ أن لديهم القدرة على تمييز الأشياء في الظلام، فقد تسقط من أحدهم قطعة من النقود وسط الظلام الحالك، غير أنه يسهل عليه تمييزها والتقاطها... وما هذا إلا ضرب من التأقلم وتكيف الحواس...

وقد يثير انتباهنا نوم بعض الناس في محطات السكك الحديدية يفترشون بعض المقاعد، ويغطون في نوم عميق وسط ضجيج القطارات وصفاراتها العالية...

وقد أتيح لى أن أرى بعض أهل الغابات وهم يسيرون حفاة الأقدام فوق الأشواك والأعشاب الجافة، وكأنهم يسيرون فوق طريق معبد دون أن يصدر عنهم تأفف أو تألم.

ويذكرنا ذلك بما يقوم به بعض الحواة الهنود من السير فوق الجمر أو النوم فوق وسائد من المسامير الحادة، فلا تخترق جلودهم أو تلحق بهم الأذى. كل هذه وتلك ليست إلا حالات متباينة للتأقلم والتكيف، وقد تكون الحواس المختلفة فى حاجة إلى بعض الوقت لاكتسابها.